

أصول التعليل عند الخليل من خلال الكتاب لسبويه والإيضاح للزجاجي

أ/ رشيد حليم

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

جامعة عنابة

ملخص:

Résumé :

Cette étude est consacrée au grand célèbre grammairien arabe, nommé : AL KHALIL BEN AHMED AL FRAHIDI.

L'importance de cette ouvrage est avant tous un essai pour éclairer ses efforts linguistiques établis au plus importante méthode de la recherche grammaticale Al Illa).

AL KHALIL a mis l'accent sur l'importance de cet instrument linguistique, il a signalé aussi ses principaux axes et cela dans deux ancienne revues scientifiques :

KITAB SIBA WEYEH, et IDHAH EZZAJAJI

خصصنا هذه الدراسة لنحوي عربي شهير، اسمه الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتتجلى أهمية هذا العمل في كونه محاولة لكشف جهوده اللغوية التي خصصها لأهم منهج من مناهج البحث النحوي العربي إنه: منهج العلة. وقد أكد الخليل على أهمية هذا المنهج وأشار إلى أهم محاوره، وذلك مما ورد إلينا في وثيقتين علميتين تاريخيتين: كتاب سبويه، وإيضاح الزجاجي.

يعتبر علم اللغة جزءاً من المعرفة الإنسانية (1) ويعد علم النحو قاعدته الركينة حيث يطمح إلى إقامة بناء شامل للظواهر اللغوية (2) كما يسعى إلى إبراز ما للقواعد التركيبية من سلامة ووجاهة وفق ما تتطلبه عملية التعليق ومسالك النظم.

ولقد أيد اللغويون منذ القدم فكرة البحث عن مجموع العوامل التي تستقر خلفها تلك الظواهر اللغوية (3). وكان لعلماء العربية منذ القدم إحاطة بهذه المعرفة فسعوا إلى تأصيل قواعدها وبناء أصولها، وكان مبتغاهم الأصيل البحث في أفانين العربية عامة وعلم النحو خاصة وركزوا على منهجه، وجاء تركيزهم بحثاً وتظهيراً على منهج العلة كنواة رئيسية تتساهم فيها العلوم جميعها، دون إقصاء لعلم النحو أو غيره.

ولقد بنوا مبحث العلة على خطوات سليمة، ظلت شامخة لا يغفل جديتها دارس ولا يغمط أهميتها باحث، وظل هذا المبحث من أعرق الأصول المنهجية التي وطن بها علم العربية، ورسخ بها نظرياته ذلك أن سلامة الأداء اللغوي في العربية وغيرها لا ينسجم إلا بصحة القاعدة وسلامتها، والقاعدة الصحيحة تستخلص بتوظيف الدليل العلمي والبرهان العقلي، ومن ثمة تلازمت هذه الأشياء فالقاعدة مرتبطة بالنحو والنحو مرتبط بالغة، والغة مرتبطة بالفكر والفكر متصل بالواقع، والواقع يقوم على التقنيين والتعديد لأن أساسه الانتظام، وفي هذه المتواليات يؤكد أحد منظري العلل أن النحو علم قياسي ومسبار لأكثر العلوم لا يقبل إلا ببراكين وحجج (4)، وشاء للدرس اللغوي العربي إذا أن يتأسس - كغيره - على مبادئ النظر وأسس التبرير، ويتميز علماؤه بأنهم معلون (5)، ويغال بهم هذا المنحى حتى عم على الفكر النحوي قاطبة. فلن يتسنى استنتاج الأحكام دون بسط التعليق ولن تستقيم النتائج دون استقامة الدليل. وأصبحت هذه الأساليب الذهنية ملجأ النحاة ومقاصدهم حتى تمكنهم من تفسير الظواهر اللغوية الخفية والتدليل على ما يتحكم في ضروب المعطيات اللغوية من تناسق وانسجام.

المدونة العلمية : إن الناظر في تراثنا العربي، وفي هذا المجال خصوصاً تستوقفه وثيقتان علميتان ورد فيهما حديث مستفيض عن المعرفة المتعلقة بالتعليل اللغوي. وتنسب هاتان الوثيقتان إلى الخليل بن أحمد [ت 175 هـ] أعظم رجل بحث في الدرس اللغوي العربي ونعتقد أيضاً أن الوثيقتين هما أقدم مما وصلنا في التقعيد لأبواب التعليل، وأعظم مساهمة في التنظير لمبادئه.

أما الوثيقة الأولى: فهي كتاب سيبويه [ت 180 هـ] وهو كتاب عظيم في مسائل اللغة، كان لسبويه الفضل الأكبر في أنه جمع واستوعب وسجل وأما الخلق والابتكار فقد كانا من نصيب الخليل في الأعم مما اشتمل عليه كتاب سيبويه. فكان الخليل الأساس الأول في نشأة الحركة النحوية (6). وذهب أحد اللغويين المحدثين إلى أن أول من شاهدنا في أثره النحوي استخدام مصطلح النحو هو الخليل (7) وذلك في قوله مادحا أستاذه: عيسى بن عمر [ت 149 هـ].

بطل النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر

وقد تميز الخليل بسعة الاطلاع على علوم العربية واللغة على حد سواء: فإن دوره في بناء النظرية النحوية يضعه في منزلة بين النحاة لم يبلغها أحد قبله ولا أحد بعده حتى تلميذه سيبويه" (8).

وثاني هاتين الوثيقتين ذلك الحديث المطول الذي أورده صاحب الإيضاح وقد نسبته إلى الخليل بن أحمد (9) ولم نعثر - فيما وقع بين أيدينا - من تنكر لنسبة هذا النقل الطويل وقائله: الخليل بن أحمد. ولذلك أشار العلماء القدامى إلى فضل الخليل في إرساء علم النحو واستخراج قواعده، فقد ألمع أحدهم منبهراً بجهود الخليل في علم اللغة عامة وعلم النحو خاصة، ومنهج التعليل أخص فقال: "والخليل بن أحمد لا يُنكر فضله في استنباط ما لم يسبق إليه من علم العروض وعلل النحو" (10).

ومما يستحسن الإشارة إليه أن الوثيقتين شملتا حديثاً متخصصاً عن العلل، وبعبارة أخرى أن الوثيقتين دلتا على أن العلل كانت كامنة ضمنياً فأخرجها الخليل وجسمها مصرحاً بها، مفصلاً القول فيها. ومما يمكن أن نستخلص من النصين المذكورين: إن للخليل

فضلا كبيرا في تعليل القواعد التي صاغها أو أوردتها ثم إن كلام الخليل يدل على أن العناية بالعلل لم تكن مجرد بوادر أو طفرات في عصره.

والمتمأل في كتاب سيوييه يلاحظ تركيز الخليل على الأبواب اللغوية محاولا أن يبرز نصيبها من التعليل، ويخلص إلى استنتاج يطمئن العقل إليه، ومفاده: أن التعليل ظاهرة ثابتة مستقرة راسخة في الكتاب.

وأما النص الوارد في إيضاح الزجاجي المنسوب إلى الخليل ففيه تصور الخليل للعلة على أنها بناء كامل وصرح شامل متماسك العناصر، مؤتلف الأجزاء، محكم الصياغة منسجم الأعضاء والأقسام، لكل قسم من أقسامه غاية ولكل عنصر من عناصره سبب وهدف.

قال الزجاجي [ت 337 هـ]: "وذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد رحمه الله، سئل عن العلل التي يعتل بها، فقبل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال: "إن العرب نطقت على سجيبتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علة، وإن لم ينقل ذلك عنها واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما علته منه، فإن أكن أصبت العلة، فهو الذي التمسست. وإن تكن هناك له فمتلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دار محكمة البناء، عجيبية النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيتها، بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا هكذا لعله كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا؛ سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإن سنح لغيري علة لما علته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها". (11).

وهاتان الوثيقتان تشيران إلى واقع عمل الخليل في بسطه لمفهوم العلة حيث تتعطف إلى المعنى الشامل العام الذي كان بعض المتقدمين يريدونه من الأسباب الداعية

إلى تلك الأحكام وهذا في حقيقته يُبنى عن واقع منهج الخليل ومن جهة أخرى يدلنا على المفاهيم العامة للتعليل ومنطلقاتها الأساسية عنده حيث لم يحد الخليل - كما تفيد النقول - عن سنن البحث العلمي الأصيل الذي يبدأ بملاحظة الظواهر التي يشتمل عليها موضوع بحثه، والعمل على تصنيف هذه الظواهر ثم استخلاص القانون الجامع الذي يفسر هذه الظواهر أيضاً، وعلى يده تكامل منهج البحث وتحددت أدواته ومذاهب التحقيق فيه، وكثير من أصول منهجه قد أبان عنها خالفوه من النحويين كما استظهروها من تدبر كلامه كيف لا وهو سيد العرب وعلمائها وكاشف قناع القياس في عمله ودرسه (12) ولا يكون الخليل إلا كذلك فهو الغاية في بحث مسائل النحو وبلغ في مبحث العلة مبلغاً عالياً حتى أدرك دارسو العربية من بعده أنه هو الذي بسط النحو وسهل غاياته في تصحيح أقيسينه وتعليل مسالكه واستخلاص أحكامه (13).

وهذا المنهج التعليلي الذي تصوره الخليل وامتد في أعمال جمهور من النحاة منهج مستمد من طبيعة الهدف الذي يرمي إليه البحث النحوي، وهو استنباط جملة القواعد والقوانين التي تحكم لغة العرب في صياغة ألفاظها المفردة وصياغة الجمل أو التعابير المركبة التي تؤدي معنى يكون مقصوداً إليه. ومثل هذه الأمور التي أخذ فيها الخليل بهذا المبدأ جاءت مطابقة لما ثبت في الدراسات اللغوية. وتجلت فيما انتهى إليه المحققون من علماء اللغة المحدثين، وهو ما يؤدي بنا إلى القول: إن منهج العلة الذي قعده الخليل يصلح أن يكون قانوناً شاملاً لجميع اللغات. وفي هذا نلمح تجليات عبقرية الخليل الفذة التي نبه عليها السيوطي عندما قال إن الخليل "أعلم الناس وأذكاهم وأفضل الناس وأتقاهم" (14).

طابع التعليل عند الخليل: لقد تميز طابع التعليل عند الخليل بعدة خصائص نذكر منها على سبيل المثال:

أ- **التعليل الفطري:** لقد قضت النظرة العلمية الموضوعية للخليل أن يتصور أن أوضاع كلام العرب جاء- في معظمه- على ما تقتضيه الحكمة الطبيعية لنفسيهم وفطرتهم السليمة. فكان ينطلق في تعليقاته من الكلام العربي، وما كان يدور في خلجات نفسه. حيث كانت آراؤه مستمدة من حسه وخبرته بنفسية العربي بعيداً عن حقائق الفلسفة وقضايا المنطق، بحيث لم تكن بلغت أشدها بعد فيكون لها في النحو أثر وفي تفكير النحويين

سبيل (15). ولم يخرج في تعليقه على ملاحظة الظواهر ومتابعتها وهو الأصل الذي يقوم عليه التعليل في العلوم قاطبة، وهو أنه إذا ما اقترنت ظاهرتان وجوداً أو عدماً فإنهم يعتبرون إحدى الظاهرتين علة وسبباً للأخرى.

وهذا المنحى الطبيعي الذي سلكه الخليل بارز في تحليله؛ إذ يعتقد أن التعليل مركز في طبائع العرب، معروف بالمنة فيهم دون ملحة، أما مهمته فتقتصر على تبرير طرائق التركيب والتدليل على وجود تلك الأبنية الوظيفية في الكلام وتعليلها بما يتلاءم وحقيقة مظاهرها، وتلك هي الطريقة الشكلية في متابعة الظواهر، أو الخطوات الوصفية في صلب التحليل اللغوي مع ما يضمنه العمل العلمي من التجرد والموضوعية (16).

ب- إن كثيراً من الاعتلالات التي اعتل بها إنما يومية إليها إيماء، ثم يستخرجها من كلامه من تهيأ له النفاذ إلى ما أراد من النحاة، وربما أقاموا أحكاماً على علل لم يشر إليها فتستخرج من قبل المذكورين من بعده عند التأمل في أعطاف كلامه، وقد نص على ذلك صراحة ابن جني عندما أشار إلى أن العلل تستنبط من كلام من كانوا يشافهونهم من ذوي الطباع اللغوية الصحيحة من الأعراب وذلك بالنظر والتأمل في طريق بنائهم للأحكام وإن لم يكن هو نفسه قد صرح بالأصول و العلل التي بنى عليها تلك الأحكام وفي هذا يؤكد ابن جني "وإنما مكنت القول في هذا الموضوع ليقوى في نفسك حسّ هؤلاء القوم، وأنهم قد يلاحظون بالمنة والطباع، مالا نلاحظه نحن عن طول المباحثة والسماع، فتأمله في الحاجة إلى مثله ظاهرة" (17).

وهكذا كان النحاة اللاحقون يرون أن ما اعتل به الخليل ورجال طبقتهم إنما هي علل لغوية صرفة مدارها على أسباب لغوية بينها الحس قبل أن ينفذ إلى إدراكها الذهن، وتجري في أكثرها مجرى القوانين اللغوية المستمرة التي تتفرع عنها كثير من الأحكام التي تتخذ شكل قوانين مطردة.

ج - التعليل العقلي: تؤكد بادئ ذي بدء أن الثقافة العربية في مراحلها الأولى ليست خلوا من النظر العقلي ما دامت تحتكم إلى النصوص. وكان نشاط الثقافي العربي

والإسلامي يجعل الاجتهاد أصلاً من أصوله عند تعذر النص الواضح، وكان لا بد لهذا الاجتهاد أن يقوم على أصول وقواعد.

ولقد كان المنحى العقلي الذي تبناه علماء الفقه خاصة أتباع أبي حنيفة [ت 150 هـ] الأثر العظيم في بروز التيار الاجتهادي في تخريج الأحكام، وقد كان الخليل من أنصار هذا المذهب.

لجأ الخليل إلى التعليل العقلي مستمداً إياه من ثقافة عصره وظروف بيئته، كما يعد الخليل في ذاته حلقة انتقال إلى التعليل بالرأي والجنوح نحو الاجتهاد الفكري الذي ميزه منهج الكلاميين ففتح باب التفرع والتخريج في مسالك العلة بسبب اعتداده بسُلطان العقل، ونقل البحث إلى مرحلة التجريد فخرج به إلى منهج الغائية الذي هو سبيل المتكلمين، ولا ريب في ذلك فالخليل نفسه كلامي (18).

وعلى الخليل بعض الأحكام بعقل عقلية، وخرج بعض القواعد تخريجات مبنية على الذهن والإدراك، وذلك عندما يتعلق الحكم بمعقولية الكلام، وما جاء به من وجوه التعليل التجريدي في هذا الجانب لا مغمز فيه من جهة أنه فرض لاعتبارات عقلية بحتة فرضت على اللغة من ذلك ما حكاه سيبويه عن الخليل في مسألة العطف على ضمير الرفع المتصل وضمير الرفع المستتر في باب: (يحسن أن يشرك المظهر المضمّر فيما عمل فيه، وما يقبح أن يشرك المظهر المضمّر فيما عمل فيه) (19).

وهذا التعليل المبني على إعمال الرأي أساسه الاجتهاد ويمكن أن ندخله في عملية النظم اللغوي بصفة عامة، تلك الفكرة التي استلهمها عبد القاهر الجرجاني [ت 471 هـ] في كتابه دلائل الإعجاز.

* **أصناف العلل:** الناظر في مسألة العلل التي جاء بها الخليل بن أحمد والتي تستنبط من كتاب سيبويه، يرى أنها شاملة، وقد غطت مستويات الدرس اللغوي المعروف اليوم: (الصوت، الصرف، النحو والدلالة)، كما يخلص إلى استنتاج علمي مفاده: أن تعليل الخليل ظاهرة مستقرة ثابتة في الكتاب وتتردد في كل باب كما تتردد في مؤلفات المحققين من بعده. وما يعنينا من ضروب التعليل التي صاغها الخليل لبناء قواعد العربية وتبرير أحكامها أن نحاول تقريب تنظيره المنهجي في هذا المجال وما جدّ من أبحاث لسانية حديثة

وجادة، إذ نستبين في بعض تعليقاته ملامح الطريقة الوصفية، فكثيرا ما كان يقرر القواعد ويؤسس الاستنتاجات على ضوء ما يسمعه، أو ما يجمعه، وكيف لا يكون كذلك وهو أحد جُماع اللغة ورواتها، فقد بنى بعض الأحكام على أسس تقريريه محضة، لا مكان فيها للمعايير المفروضة من خارج الواقع الحقيقي للغة المستعملة.

1- التعليل الصوتي : يعتبر الخليل من أوائل علماء العربية الذين انتقوا إلى فكرة التعليل الصوتي وتمكن من بلورة وظيفته وتجليته صورته، فقد لاحظ ذلك التفاعل بين الحروف والكلمات وما لهذا الانسجام من أثر في الاستعمال (20)، ويطلق على هذا التفاعل الصوتي بالتماثل الذي يسببه التمازج بين الصورة الصوتية والحدث أو الفعل، وهو بذلك يرمي إلى وجود علاقة طبيعية موحية بين الصوت وقيمه اللغوية والبيانية. وقد بذل ابن جني جهدا حميدا دلل لنا رؤية الخليل، وساهم في توضيحها في باب سماه: "إمساس اللفظ أشباه المعاني" (21).

واستهل حديثه بإشادة وفخر لما اكتشفه الخليل في هذا الموضع الشريف، وهذا المبحث الطريف، يقول ابن جني: "اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقفته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته" (22). قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداء، فقالوا: صرّ وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: صرّ صرّ (23). وهذا التعليل الصوتي يطلق عليه مصطلح: "Onomatopie" أي المجانسة بين الشكل والحدث.

وتعليقات الخليل في المجال الصوتي كثيرة ومتداخلة لا تتأى كثيرا عن فهم الوظيفيين لما تحدته اختيار الفونيمات من دلالات متغيرة (24).

ومن تعليقاته الموضوعية التي استخلصها من فهمه لطبيعة المتكلم العربي وإدراكه لسحر العربية التي تجنح كغيرها طواعية للتخفيف بالإعلال وبالإبدال.

وقد مثلنا من صور هذه البدائل تمثيله للإعلال في ما رواه سيبويه عن أستاذه، سجله في باب الإضافة إلى فَعِيل وفُعِيل من بنات الياء والواو التي الياءات والواوات لامتهن وما كان في اللفظ بمنزلتهما.

يقول سيبويه: "وسألته - يقصد الخليل - عن الإضافة إلى حية فقال: حيوي، كراهية أن تجتمع الياءات والدليل على ذلك قول العرب: "في حية بن بهدلة حيويٌ وحركت الياء لأنه لا تكون الواو ثانية وقبلها ياء ساكنة".

لقد فسّرَ هذه الإضافة بما حدث من تغيير في صيغة الكلمة حيث أبدلت الياء واوا نزوعاً إلى اجتناب الثقل الناتج عن تتابع أربع ياءات في الاسم الواحد لأن العرب كرهوا أن تتوالى في الاسم أربع ياءات فحذفوا الياء الزائدة الموجودة في مثل سليم وتقيف حيث استقلوا هذه الياءات فأبدلوا الواو من الياء (25).

2- التعليل بالاستعمال: ظل اهتمام الخليل منصبا على اقتفاء آثار المتكلمين العرب الأقحاح ولذلك قصد بيئات الحجاز وتهامة. (26) فأخذ علمه من أفواه تلك القبائل نزيلة هذه البوادي فحفظ ودون ما يزيد عن عشرين رطلا (27) ثم جاء عمله التقعيدي حيث استنتج كثيرا من قواعد العربية بناء على ما سمعه من الأعراب أو ممن شافهم من ذوي السلائق الحسنة، وهو بهذا الصنيع العلمي لا يختلف عما سناه الوصفيون المحدثون، كما يقرر ماريوباي: "وإن مجال بحث عالم اللغة الوصفي يتمثل حقيقة في حقل اللغات الحية حيث يمكن تزويد الباحث بأحد أبناء اللغة الذين ينكلمون بها، وهو الذي يعرف فنيا باسم الراوي اللغوي: Informant" [...] فهؤلاء الرواة يمكننا أن ينتقوا من بين من يحسنون تمثيل المستوى اللغوي المراد تحليله وتعيده" (28).

ومن خلال تنقلاته بين البيئات العربية وقف الخليل على تباين لهجات الأعراب، ولاحظ خصائصها الاستخدامية، وسجل ما تتميز به كل لهجة من عادات قولية وهو ما جعله يدرك أن لغات العرب تشترك وتختلف في ظواهر متنوعة، وبالتالي فلا يمكن تفضيل بعضها على بعض إلا ما كانت عيوبها فاشية.

وظل هذا المنحى -في نقل اللهجات- ديدنه ومبتغاه فما هو يجري في استخلاص القواعد وتقنينها على المأثورات المحكية والنسوج المستعملة والمتداولة دون النظر إلى

الكثرة أو القلة من مستخدميها وفي تخريجه لأنظمة الاستعمال اللغوي أدى به إلى التركيز على أهمية اللهجات ومن جهة أخرى لم يغفل المواقع اللسانية للعربية، تلك الممتدة شمالاً وجنوباً بأقاصي صحاري بلاد العرب. ومثل هذا الفعل الجاد الذي سار عليه الخليل لا يبتعد عن منهج البحث التحليلي لعلماء اللغة الوصفيين الذين أسسوا علم اللغة الجغرافي الذي جعل دراسة اللهجات من أجل أعماله التطبيقية (29).

لقد عاش الخليل ردحا من الزمن منتقلا بين البوادي متعرِّفاً إلى لهجات الأقاليم، فكان متقبلاً للهجاتهم مسلماً لمنطوقهم، ولنا في موقفه العلمي الهادئ المتزن من بعض القراءات الشاذة، خير دليل على سعة ذلك العقل المتبصر الذي تلمس لتلك القراءات أوجهاً صحيحة، رادا إياها إلى مما اختلف من منطوق الناس، فها هو يخرج قراءة عاصم الجحدي (ت 84 هـ) : (وَمَنْ تَقَنَّتُ اللَّهُ..) (30) بالتاء، على تحمیل (مَنْ) معنى (التي) (31) ويفضل قراءة الأعرج : (يا جبالُ أُوَيْبِي مَعَهُ وَالطَيْرُ) (32) برفع الطير (33).

ولعل خير ما يؤكد هذه الروح العلمية المتسامحة من معاودة تلميذه - سيوييه - ومراجعته له في كثير من القضايا المستعصية، من ذلك أن سيوييه سأله عن وجه من وجوه الحركة الإعرابية في (أيهم) من قوله تعالى : "ثُمَّ لَنُنزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَانِ عُنْيًا" (34) فقال: القياس: النصب (35).

وهكذا ترى هذا الإبداع الفذ في تخريج هذه المسائل النحوية وتقف على هذه العبقرية المتميزة الخالدة التي كانت الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه كما جاء على لسان أبي سعيد السيرافي (36) فقد كان الخليل قليلاً ما يرد قراءة أو يرفضها، وهو أعلم الناس بلهجات العرب بل يخضع أقيسته لها ويعدها صحيحة غير مأبئة في بيئة الاستعمال والقياس (37).

هذا هو المنهج الأول الصحيح الذي أسسه الخليل وهو أن يخضع القياس للكلام المنطوق وليس العكس كما شدد النحاة من بعده فحادوا عن ذلك المنهج السديد.

ومن ضروب ذلك المنهج السديد قياسه قول العرب: "ولا سيما زيدٌ" على قراءه رؤية الحجاج، (إن الله لا يستحي أن يضربَ مثلاً ما بعوضةً) (38) بالرفع (39) فيحتج بها كاحتجاجة لجواز الرفع فيما ينتصب في المعرفة كقولهم "هذا عبدُ الله منطلقٌ" (40) بحرف ابن مسعود: (وهذا بعلّي شيخٌ) (41).

هكذا كان الخليل، وقد أجمع دارسو العربية على أن هذا الرجل كان أعظم عالم في درس العربية حيث تميز بتمسكه بما ورد عن العرب دون تطبيق معايير عرف بها عصره، وقد حرص على قبولها خاضعا لمقاييسه لأصولها مصححا أدواته وفق ما تقتضيه قواعدها.

3- التعليل بالعامل : في أول صفحة من أول أثر نحوي مدون يقتزن الإعراب وعلاماته بما سماه سيبويه: "العامل" وتتجلى آثاره في تعاقب علامات الإعراب على آخر الكلمة المعربة، ومن ثمة لا يمكن التقريظ بينهما، فالعامل يقتضي أثرا هو الإعراب والإعراب يقتضي مؤثرا هو العامل، وعلى هذا يمكن القول مع فايس [J- Weiss] بأن "العامل والإعراب هما المحور الذي تدور حوله نظرية النحو عند نحاة العرب." (42).

وانفق المحققون من نحاة العربية على أن محدث الإعراب أو مقتضى الإعراب هو العامل وهو: "كل ما رفع أو جر أو نصب أو جزم" (43). والذي نقصده بأول أثر نحوي مدون كتاب سيبويه (قرآن النحو) الذي وطد فيه نظرية العامل التي استوحاها من فكر الخليل وهي أهم مقولة نحوية اهتدى إليها هذا العالم الجليل وتتعلق بنظم الكلام ومرتبطة بطبيعة العربية وهي أنها لغة معربة ولا يراد بالعامل ذلك الذي أحدث بذاته حركة الإعراب، وإنما هو عامل اقتراني أي لما اقترن هذا اللفظ أو ما في حكمه أعطى اللفظ المقترن به حكما إعرابيا ولولا أنها كانت موضع مغالطة من قبل ممن تصدوا لنقد الأسس التي أقام عليها بناءه للنحو (44)، ومع ذلك فإن نظرية العامل هي من أهم ما اكتشف الخليل، وأهميتها تمتد إلى إيجاد تفسير شامل وتحديد دقيق لمواضع عناصر العبارة بعضها ببعض (45). اهتدى سيبويه إلى التعريف بمجاري هذا العامل وسعى إلى إحصاء عددها قائلا: "إنما ذكرت لك ثمانية مجارٍ لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل- وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه- وبين ما يبني عليه الحرف بناء

لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكل عامل منها ضرب من اللفظ في الحرف وذلك الحرف حرف الإعراب." (46)

ولا شك في أن هذا التفصيل مما فهمه سيبويه من تنظير الخليل ويمكن الرجوع في هذه القضية إلى ما حصله من نماذج تطبيقية (47) وقد اخترت من تلك النماذج واحدة أوردها تحت باب: "ما ينتصب لأنه ليس من اسم قبله ولا هو هو" (48) ومثال ذلك قولهم: هذا درهمٌ سواءً. كأنهم قالوا: هذا درهمٌ استواءً فهذا تمثيل وإن لم يتكلم به. قال عز وجل: "في أربعة أيامٍ سواءً للسانين" غير أن أناساً قرأوها بالرفع: (سواءً) وبالجر (سواءً) (49) قال الخليل معللاً: جعلوها بمنزلة مستويات (50) نعت لأيام، وقد نصبت على الحالية ورفعت على حذف المبتدأ.

ويمكن الرجوع في هذا التوجيه الظاهري إلى مسألة العمل في الجملة الاسمية حيث يرتفع الخبر لأنه مبني على المبتدأ وقد ضاهى هذا التوجيه الظاهري على شاكلة ما يقع في الجملة الفعلية حيث يعمل الفعل في الاسم الذي بعده وهو الفاعل، يقول سيبويه: "إن المبتدأ يعمل فيما بعده كعمل الفعل فيما يكون بعده". وهكذا ترى كيف ربط الخليل بين الأثر الإعرابي والعامل الإعرابي الذي هو قرين القياس ونتيجة العلة.

والذي يولي كتاب سيبويه فضل نظر سوف يجد أن كثيراً ممن روى عنهم سيبويه أنهم كانوا يستخدمون ضروبا من العلل تختلف من حيث السهولة والإغراق (51) ولعل أكثر العلماء تصدرا- دون منازع- في كتاب سيبويه أستاذة الخليل الذي بدا علمه فيما صنفه تلميذه.

ومجمل ما ذكرنا في هذا الضرب من التعليل بالعامل يمكن تبويبه على أساس التحليل الشكلي للظواهر النحوية خاصة، فقد فسر كثيراً من تلك الضروب على ضوء صيغها التركيبية كما تجلى في تركيب الجملة الاسمية، فقد صنف الأول مبتدأ والثاني خبراً، رغم أنهما يشتركان في إحداث المعنى ولكن فهمه للعلامة الإعرابية الظاهرة على أواخر اللفظة جعله يطرح المعنى عند تبرير تلك التراكيب.

ويعتبر هذا التحليل الشكلي أهم مبدأ من مبادئ النحو الوصفي وقد تلقفه أصحاب المذهب التوزيحي خاصة وقد عالج الخليل عدة قضايا لغوية من مثل التذكير والتأنيث والتعريف والعلاقة بين الفعل والفعال والمبتدأ والخبر على أساس الأشكال والصيغ وليس على أساس الدلالات والمعاني مما يدل على سلامة منهجه وصحة القواعد التي أقام عليها مبادئ درس اللغوي ولربما اقتبس بعض اللسانيين بعضاً منها.

وبعد هذه المقاربة العلمية المنهجية نخلص إلى القول :

- إن الخليل قد قدر موضوع العلة وسن قوانينها فكان يقدر لكل تركيب أو عبارة تقتضي التوضيح والتفسير مبرراً يسهل فحواها.
- لجأ إلى تقديم العوامل ليوضح ما استصعب فهمه
- عول في تعليقه على الإعراب لإدراك المعنى في الجملة.
- جمع بين التعليل الفطري والتعليل المؤسس على التجريد.
- يقترب منهج الخليل في دراسته للعربية من بعض خطوات المناهج اللسانية الحديثة وأقربها المنهج التوزيحي.
- يرجع للخليل الفضل الأكبر في الاهتمام إلى بعض مفاتيح البحث اللغوي العربي ويعود ذلك إلى عقيدته الراسخة وسليقته العربية السليمة ومخالطته للأعراب في بيئاتهم.
- ومجمل القول: أن أصالة العلة عند الخليل كانت في السياق الطبيعي للتطور العلمي للعربية والتأثر بالثقافة الدينية التي كان المجتمع العربي يزخر بها. فأسس منهجه من واقع البيئة العربية لا من خارجها. فلا ضير أن يتلمسها الدارسون منها.

الهوامش:

- 1- د محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، طبعة دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 1997، ص15
- 2- د- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، طبعة عالم الكتب ط3، القاهرة 1998، ص78.
- 3- د- حلمي خليل، مقدمة لدراسة، فقه اللغة دار المعرفة الجامعية، اسكندرية 1995، ص109.
- 4- الزجاجي أبو القاسم (ت337 هـ)، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، طبعة دار النفائس ط5، بيروت ص41.
- 5- د- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج دار النهضة، بيروت 1979، ص80.
- 6- د- تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2 القاهرة 1982 ص257.
- 7- د- عبد الفتاح دجني، أبو الأسود الدؤلي، ونشأة النحو العربي، دار القلم، ط1، بيروت 1974، ص63.
- 8- د- تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، ص257.
- 9- الإيضاح في علل النحو، ص65، 66.
- 10- ابن الأنباري: كمال الدين أبو البركات [ت577 هـ]، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي مكتبة الأندلس، بغداد 1970، ص45.
- 11- الإيضاح في علل النحو، ص65، 66.
- 12- الخصائص، تحقيق محمد علي النجار - طبعة دار الكتاب العربي، ح1، ص361.
- 13- د- منى إلياس، القياس في النحو، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص22.
- 14- السيوطي جلال الدين (ت911 هـ)، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها تحقيق مولى جاد الحق بك ورفاقه طبعة المطبعة العصرية بيروت، ج1، ص115.
- 15- د أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب، طبعة دار الثقافة، بيروت 1972، ص127.
- 16- د- حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص53 وما بعدها.
- 17- الخصائص ج1، ص276، وينظر المزهرة ج2، ص496.
- 18- د مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، طبعة دار الرائد العربي، ط2، بيروت، 1986 ص41.
- 19- سيبويه: أبو بشر عثمان بن قنبر [ت180 هـ]، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة عالم الكتب ط3، بيروت 1983 ج1، ص391.

- 20- الخصائص، ج2، ص252 وما بعدها. 21- الخصائص، ج2، ص152
- 22- الخصائص ج 2، ص152. 23- الخصائص ج 2، ص152. وفي هذا الرأي تلميح الخليل إلى نشأة اللغة على أنها نتجت بسبب المحاكاة الصوتية.
- 21- سليم بابا عمر، وباني عميري، اللسانيات العامة الميسرة، الجزائر 1990، ص73، هـ1.
- 22- الكتاب ج3، ص344. 23- نزهة الألباء في طبقة الأدباء، ص55.
- 24- د عبد الله بن حمد الخنران، مراحل تطور درس النحوي دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1993، ص70.
- 25- ماريوباي، أسس علم اللغة ترجمة أحمد مختار عمر، طبعة عالم الكتب، طبعة 3، القاهرة، 987، ص120.
- 26- م ن، ص64.
- 27- سورة الأحزاب الآية 31 (وَمَنْ يَفْتَنُ مَنكُنْ) بياء الغائب. 28- الكتاب ج2، ص115.
- 29- سورة سبأ، الآية 10 (والطيرَ) بالنصب أما اختيار الخليل فهو الرفع. 30- الكتاب ج2، ص187.
- 31- سورة مريم، الآية 69، القراءة المشهورة (أَيُّهْمُ) بالرفع أما قراءة النصب فهي قراءة الكوفيين وهم عاصم، حمزة، الكسائي، ينظر الكتاب ج2، ص399، هـ2.
- 32- 32- الكتاب ج2، ص399
- 33- السيرافي أبو سعيد الحسن ابن عبد الله (ت 368 هـ)، أخبار النحويين البصريين تحقيق محمد الزيني، وعبد المنعم خفاجة، طبعة الحلبي 1955 ص30.
- 34- د أحمد محمود الصغير، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، طبعة دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت 1999، ص110 وما بعدها.
- 35- سورة البقرة الآية 26 (بعوضة) بالنصب قراءة سبعية.
- 36- الكتاب ج2، ص286.
- 37- 37- م ن، ص83.
- 38- سورة هود الآية 72 (شيخاً) قراءة سبعية.
- 39- د -محمد حماسة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث طبعة دار غريب، القاهرة 2001 ص159.
- 40- الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمان(471هـ-)، الجمل تحقيق علي حيدر دمشق 1972، ص12
- 41- فند ريس -ج، اللغة، ترجمة الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية 1950، ص77.
- 45- الكتاب ج، ص13. 46- الكتاب ج2، ص110-114-118.
- 47- م ن، ص118. 48- سورة فصلت الآية 10.
- 49- الكتاب ج2، ص119. 50- م ن، ص86.
- 51- أسس علم اللغة لماريوباي، ص54.